مقالات
ISSN: 2090 – 0449 Online
ARCIF Arab Citation and Impact Factor, [Q3].
AIF Arab Impact Factor for Arabic Scientific Journals, [1.73].

البغاء والبغايا
في المغرب الإسلامي الوسيط

د. بلقاسم بن عبد النبي

دكتوراه في التاريخ المعاصر

عضو مخبر البحث والدراسات والبحوث المتقاربة

كلية الآداب بصفاقس – الجمهورية التونسية

مُلَخّص

مثّل البحث محاولة لدراسة تاريخ المغرب الإسلامي الوسيط من الأسفل بإلقاء نظرة على ظاهرة غيبتها الذاكرة واعتبرتها من المحرمات وفئة رفضت اجتماعيًا وهمّشت تاريخيًا . فلم تغب الدعارة عن مجتمعات المغرب الإسلامي الوسيط، رغم سطوة المرجعية القبلية والدينية واعتبرتها من الطابوهات والمحظورات وكرست كل الأساليب لطمسها . فحاولنا ، ولو بإيجاز، إماطة اللثام عن الظاهرة وكشف خباياها وفهم طلاسمها . فالتوسع العمراني والاختلاط السكاني والأزمات الاقتصادية والاجتماعية والتوترات السياسية والحروب، خلقت مناخا لبروز وتأجج هذه الظاهرة فتكوّنت دور بغاء بتسميات مختلفة، توزعت بين الفنادق والدور الخاصة والاستراحات والملاهي الليلية والمواخير العمومية . فتعددت البغايا بين الطرازات والخرجيرات والمغنيات والراقصات وتنوعت تصرفاتهن واختلفت أساليبهن لإغواء الرجال. ولعب الوسطاء "القوّادون" دورًا كبيرًا في تنظيم وتنشيط هذه الظاهرة خاصة مع تواجد سوق النخاسة وتجهيز النخاسون الإيماء "لسوق الدعارة" باعتماد أدوات الزينة التي يصبغون بها الأمة لتغطيه العيوب والتشوهات والأمراض، بل وتغيير لون بشرتها وعيونها بناء على طلب الزبون. وكان شهاب الدين أبو عباس أحمد بن يوسف التيفاشي نموذجًا رائعًا لما تركه في كتابه النادر "نزهة الألباب فيما لا يوجد في كتاب" من دراسة شاملة ودقيقة للظواهر الجنسية في المجتمع الإسلامي بشرقه وغربه وأبرز فيه فئات عديدة بأسلوب فكاهي وحوّله من الطابع الجدّي الأكاديمي إلى الطابع الممتع، جمع فيه النوادر والأخبار والأشعار بمزاوجة بين بشاعة اللفظ وحسن المقصد حتى نهاية منتصف القرن السابع هجري. فاتخذ الجرأة في طرح هذه المواضيع دون خوف أو خجل حتى أنه يمكن تصنيفه من أول المؤلفات في الأدب الإيروتيكي المحرم والشاذ الذي منع من التداول في كثير من المكتبات العربية . وتناول التيفاشي في كتابه فئات البغايا والقوادين والزناة واللوطيين والسحاقيات وأفعالهم وأساليب عملهم، واقتبسنا منه الباب الرابع الذي خصصه لطبقة العاهرات المبتذلات ونوادر أخبارهن وأساليبهن للاتصال بالزبائن والحيل للنيل منهم وأخذ غايتهن، والباب الثاني الذي خصصه لطبقه القوادين والقوادات وأبرز تصرفاتهم وأساليبهم في إغواء الرجال.

بيانات المقال:

تاريخ استلام المقال: ١٩ أكتوبر ٢٠٢٣

تاريخ قبول النشر: ٢٧ نوفمبر ٢٠٢٣

كلمات مفتاحية:

المغرب الإسلامي الوسيط؛ البغاء؛ البغايا؛ الوسطاء؛ دور البغاء؛ التيفاشي

معرّف الوثيقة الرقمي: 10.21608/KAN.2023.251627

الاستشهاد المرجعي بالمقال:

بلقاسم بن عبد النبي. "البغاء والبغايا في المغرب الإسلامي الوسيط".- دورية كان التاريخية.- السنة السادسة عشرة- العدد الثاني والستون؛ ديسمبر ٢٠٢٣. ص١٢٢ – ١٣٤.

Twitter: http://twitter.com/kanhistorique
Facebook Page: https://www.facebook.com/historicalkan
Facebook Group: https://www.facebook.com/groups/kanhistorique

Corresponding author: belgacem.abdenbi@gmail.com
Editor In Chief: mr.ashraf.salih@gmail.com
Egyptian Knowledge Bank: https://kan.journals.ekb.eg

This article is distributed under the terms of the Creative Commons Attribution 4.0 International License (https://creativecommons.org/licenses/by-nc-nd/4.0), which permits unrestricted use, distribution, and reproduction in any medium, provided you give appropriate credit to the original author(s) and the source, provide a link to the Creative Commons license, and indicate if changes were made.

نُشر هذا المقال في دَّورِيةُ كَان التَّارِيخِية للأغراض العلمية والبحثية فقط، وغير مسموح بإعادة النسخ والنشر والتوزيع لأغراض تجارية أو ربحية.

مُقدّمَة

يُعَدّ التطرق لتاريخ البغاء والبغايا من الحقول المعرفية الجديدة التي جاءت استجابة للتيار المنادي بضرورة تجديد الكتابات التاريخية وفهم البنى والمتغيرات الاجتماعية من الأسفل وتجاوز الطرح التقليدي وإكرهات الحوليات التاريخية. ولطالما اعتبرت ظاهرة البغاء في المغرب الإسلامي الوسيط من الطابوهات والمحظورات والمسكوت عنها ضمن النصوص الإخبارية، وكرست الذاكرة الجمعية كل أساليبها لطمسها باعتبارها مخالفة لتعاليم الدين الإسلامي والأعراف الاجتماعية، وأيّ ممارسة للجنس خارج إطار الزواج هو جرم في حق النفس والعائلة والقبيلة بما تمثله المرأة من عفة وشرف. وكما ألقينا سابقًا نظرة على ظاهرة الدعارة بالبلاد التونسية في الفترة الحديثة والمعاصرة، نحاول في هذا البحث إماطة اللثام عنها في الفترة الوسيطة ضمن المجال المغربي وفهم خباياها. ورغم حداثة هذا البحث فإننا لا ندعي الأسبقية في تناوله والإشارة إليه، خاصةً كتابات إبراهيم القادري بوتشيش الذي ركز بحوثه على التاريخ الاجتماعي والطبقات المهمشة في المغرب الإسلامي طيلة الفترة الوسيطة. ولم يخلو المجتمع المغربي الوسيط من البغاء رغم سطوة المرجعية القبلية والدينية، فالتوسع العمراني والاختلاط السكاني والأزمات الاقتصادية والاجتماعية والتوترات السياسية والحروب، خلقت مناخًا لبروز هذه الظاهرة وتكوّنت دور بغاء أطلقت عليها تسميات مختلفة مثل الفنادق[١] والقصيفه[٢] ودور الخراج[٣]. وتأسيسًا على هذا، ارتأينا أن نساهم بمقاربة تاريخية نتّبع فيها أولاً الكشف عن أصناف البغايا وتصرفاتهن، ثانيًا أصناف دور الدعارة، ثالثًا النظر في الوسطاء، وأخيرًا النظر بإيجاز في مؤلف التيفاشي "نزهة الألباب".

أولاً: البغايا والإغواء

ألمحت عديد النصوص للبغاء في المغرب الإسلامي، وكانت جلية في كتب الحسبة قصد الإصلاح والمواجهة والتخفيف من الظاهرة وتبعاتها. فقد نعت المحتسبون البغايا بأبشع النعوت ودعوا إلى إبعادهن عن الأماكن العامة كالأسواق والمقابر ومراقبة الحمامات وحذروا من مخالطتهن وارتياد منازلهن، فأوصى ابن عبدون بـ"قطع حوانيت الجير والمواضع الخالية واجب، بأن يخلى فيها مع النساء، لا يخالط النساء في البيع والشراء إلا ثقة خيّر، قد عرف الناس خيره وأمانته، ويرقب على ذلك أهل الصنائع. قطع الطرازات عن السوق واجب، فإنما هي قحاب"[٤]. وخاصة أنهن يرتدين ملابس مطرزة "لا تكاد تفرق بينها بين أجسامهن"[٥]، فهي شفافة مطرزة سهلة الخلع، لا تغطي إلا أجزاء محدودة من جسمها للإغراء، ويفهم بذلك أنّ لقب الطرازات تأتّي من الملابس المطرزة والمزركشة التي كن يرتدينها. وكانت بيوت الطرازات في أطراف المساكن والأماكن العامة لما يشعرن به من مهانة واحتقار الناس لهن حتى أنّ روادهن كانوا ينسلون إليهن وفي أوقات محددة خوفا من الشبهة.

وأورد ابن قزمان أبياتا من الزجل وصفت تصرفات الطرازات واستنكر بها عادة خروج النساء والرجال إلى المقابر ليلة العيد وتحوّل هذه الأمكنة إلى أوكار لممارسة الدعارة والتعدي على حرمه الأموات بقوله:

كل وجه مزيّن ليلة العيد هو برّه
والبكا بالمقابر على الأحباب ذمرّه
احتفال الفجايع فاحتفال المسرّه
ودموع التّرحّم في ثياب الشطارة[٦].

وذكر ابن عبدون تصرفات الخرجيرات وهن نساء دور الخراج ويقمن في بعض الفنادق ويمارسن البغاء تكسبا للرزق. والفرق بينهن وبين الطرازات، أنّ الخرجيرات لا يبرحن الفندق في حين النوع الآخر يمكن استدعاؤهن بدل الذهاب إلى مقرات سكناهن[٧]. حيث كن يبارحن أماكنهن ويتجولن في الطرق لإظهار مفاتنهن وجلب الرجال لأوكارهن، لذلك دعا إلى "أن ينهى نساء دور الخراج عن كشف رؤوسهن خارج الفندق، والتحلي للنساء بزينتهن، وينهين عن السير بينهن، والفرح ولو أذنهن على ذلك..."[٨].

وازدهر فن الغناء والموسيقى في المغرب الإسلامي والأندلس، فانتشرت مجالس الطرب المغلقة والمفتوحة وخاصة باشبيلية وعبّر عن ذلك ابن رشد في قول ذكره المقري "ما أدري ما تقول، غير أنه إذا مات عالم باشبيلية فأريد بيع كتبه، حملت إلى قرطبة حتى تباع فيها وإن

مات مطرب في قرطبة فأريد بيع آلاته حملت إلى اشبيلية"[٩]. واشتهرت مدينة طريانة بملاهيها الليلية التي كانت أمكنة للاستمتاع بالغناء والخمر والبغايا وتفريج كرب داخل النفس البشرية[١٠]. حتى قال فيها ابن سعيد، "طريانة يكون فيها من أصناف الطرب في الليالي القمرية ما هو مشهور في البلاد"[١١].

وفي خضم استخدام الأنهار للتجارة والتنزه لا سيما بالأندلس برز وجه جديد للترفيه، إذ يكتري السكان القوارب ويتخلل ذلك الغناء والرقص والشراب والنكات والضحك حتى أصبح الأمر عادة ومن لا يشاركهم أفراحهم ثقيل ظل[١٢]. فذكر ابن سعيد "اجتزت مرة مع والدي قرية نارجة، وكان ذلك زمان صباغة الحرير عندهم، وقد ضربوا في بطن الوادي بين مقطعاته خيما، وبعضهم يشرب وبعضهم يغني ويطرب، وسألوا: بما يعرف ذلك الموضع؟ فقالوا الطراز، فقال والدي اسم طابق مسماه، ولفظ وافق معناه"[١٣].

وارتبط الغناء والملاهي بالراقصات، فلا يخلو مجلس أو حفل أو زواج من الراقصة حتى أنهن ألهبن أفئدة الحاضرين، وصور لنا الشاعر أبو علي حسن بن الأنصاري وطء راقصة تدعى نزهة على فؤاده بقوله:

تخط الشوق في القلب شخصها ففي
كل ما تأتيه حسن وتحسين
وليث تطيق الشين في حال نطقها
فمن أجل بعد الشين بعدها الشين
إذا رقصت أبصرت كل بديعة
ترى أنفا حبنا وحبا هي النون
فيا نزهة الإبصار سميت نزهة
لكي يوضح المعنى بيان وتبيين[١٤].

وارتبط اسم الراقصة باللهو والمجون والدعارة وأمدنا البيذق ببعض الإشارات عن ذلك في سفره مع المهدي بن تومرت في القرية المعروف باسم قلال (بوقلال حاليًا على الطريق الرابط بين تازه وأكنول) حيث روى أنهم سمعوا صراخ الرجال والنساء، فخرجوا لنهيهم عن ذلك فلم ينتهوا، وكان ردهم أنّ تلك سيرة عندهم، فلما أحلوا عليهم أمروهم بالخروج وإلا نكّل بهم فما كان عليهم إلا الخروج [١٥]. وهو ما لاحظه في حضور عرس في تلمسان بقوله "لما دخل ابن تومرت تلمسان وجد بها عروسا تزف لبعلها، وهي راكبه على سرج واللهو والمنكر أمامها"[١٦].

وحرص رجال الحسبة على أخذ إجراءات احترازية ضد المجون في الأعراس والراقصات "العاهرات" اللاتي تتبع من طرف الفساق والفجار وذلك بضرورة استخلاص أهل العرس على تصريح من القاضي، خاصة العروس التي تزف بالباديه، يحصلون بموجبه على حراس يحمون موكب الزفاف من مظاهر العربدة، فنبه ابن عبدون إلى وجوب "قطع الملهيين: فإن لم يقدر على ذلك، فلا يخرجوا إلى البادية إلا عن إذن القاضي ويخرج معهم من الأعوان من يحرس العرس من العربدة"[١٧].

وساهم تواجد سوق النخاس في تفشي ظاهره البغاء، فقد استغل النخاسون والسادة جواريهم ودفعوا بهم إلى ممارسه البغاء للاستفادة منهن ماديًا وتحقيق إرادات كبيرة بطريقة سهلة، فأورد صاحب الاستبصار عن أغنياء جبل نفوسة: "ما فيهم رجل غني إلا وله وصائف كثيرة يلبسهن فاخر الثياب ويحليهن بالحلي، ويبرزهن على الطريق للفواحش، ولهم ديارا معدة لذلك، وهذا عندهم معروف لا ينكر..."[١٨].

وأشار السقطي في رواية إلى ممارسة النخاسين مهمة القوادة لإمائهم، حيث عاين مناقشة بين نخاس ورجل ثري حول أمة مقابل خمس دراهم، إذ أورد "إني كنت أعمل في برانيّة دار للرجل حتى دخل علينا فلان من مفسدي هذا الصنف المذكور ولم أظنه على ذلك فقال له صاحب الدار: أين الخادم التي ساق لك فلان للبيع؟ فتجاهل وقال له: لا أعرف ما تقول، فقال له: هي الكاملة القد الحالكة البديعة الصورة الحلوة الشكل وكيف تجدها وقد وصفت لي وعرّفت بها، فقال له: وبعد هذا ما تريد؟ قال: أريد أن أراها، ثم قال إليه وسارّه فسمعته يقول له: خمسه دراهم تعطيني والله وحينئذ أسوقها لك، وأعطاه صاحبه الذي طلب ثم خرج عنا وغاب قليلا وجاء بخادم سوداء على النحو الذي وصف له التحفت بكساء أبيض محشي بالأحمر وجود مثلها نادر، فقال له هذه؟ وأشار لها إلى غرفة بالبرانية

المذكورة فطلعها وطلع صاحب الدار وخلّى بينهما ومشى لوجهه..."[١٩].

واستفاض السقطي في ذكر أساليب النخاسين لتجهيز الإيماء "لسوق الدعارة" وأدوات الزينة التي يصبغون بها الأمة حسب لونها والمواد التي يستعملونها للقضاء على الروائح وبعض "التشوهات" مثل النمش والوشم والأمراض كالبرص والقمل... بل إنهم يغيرون ألوان أعينهن بناء على طلب الزبون، ثم يعلمنهن طرق إغواء الباعة والمارة ويلبسهن اللباس الشفاف المزركش.

ونورد ما كتبه السقطي "ومن حيل المذكورين فمنهما أن يتخذوا غمرة صفتها باقلاّ نقع في ماء البطيخ ستة أيام ثم في لبن حليب سبعة أيام، يحرك اللبن في كل يوم يغمرون به وجه الدّرّية اللون فتعود بيضاء. ويدخلون السمراء اللون في ابزن (إبريق) قد وضع فيه ماء الكرويا حتى تلون وتقيم فيه لأربع ساعات في نهار فتخرج عنه وقد صارت ذهبية. ويحمرون الخدود بغسول صفته: دقيق الباقلاّ والكرسنّة خمسة أجزاء، ومن عروق الزعفران وبورق وحناء من كل واحد ربع جزء، ويغمر بذلك ويدهنون أوجه السودان وأطرافهم بدهن البنفسج والطيب فتحسن بذلك، ويسودون الشعر بدهن آلاس ودهن قشر الجوز الرطب ودهن الشقائق ويغسل من ذلك ببطيخ الأملج، ويجعدون الشعور بالسدر وآلاس والزادرخت. وينقون البدن من الشعر بالنورة وبعدها ببيض النمل أو بدهن قد طبخ فيه ضفادع خضراء أو عضاية أو مرارة الأرنب ويغسل بالشبّ والبورق والعفص، ويسمنون الأعضاء الهزلة بالدلك بالمناديل الخشنة والدهان الحارة والطلي بالعاقر قرحًا.

ويطيبون الصنان بأن يأخذوا مرداسنجا مبيّضا ويعجن بماء الورد ويتخذ أقراصا وتدفن في الورد حتى تجف وترفع إلى وقت الاستعمال، ويستعملون لذلك أيضا التوتية المغسولة مدقوقة منخولة بماء وملح ثم بماء ورد وكفور وتتخذ ذرورًا وتستعمل، ويصنعون لذلك أيضًا أقراصًا من ورد أحمر ومسك وسنبل وسعدى وشب وتستعمل عند الحاجة بماء الورد. وينعمون الأطراف الخشنة بالدهن والشمع واللوز المر ولخلخة بماء الورد ودهن البنفسج. ويغمرون النمش والوشم بغسول مصنوع من عروق القصب واللوز المر والكرسنّة والباقلاّ وحب البطيخ متجونا بالعسل. ويغرزون في مواضع البرص بالإبر ويخضبون عليه القلقديس والعفص والزنجار من كل واحد جزءًا معجونًا بماء ولبن التين أربعة أيام في الشمس فيبقى مصبوغًا أربعين يومًا ويغسلون ذلك الخضاب بخل وأشنان مغلّى أو بماء القلي. ويزيلون الكلف من البدن بمعجون من الشونيز وأصل قثّاء الحمار وورق الخبّازى وبزر الجرجير وأصل الكرم والعسل. ويغسلون الأبدان خوف القمل بالبورق وميويزج وماء السلق ودردي الشراب والصابون. ويزيلون رائحة الأنف بسعوط من دهن المرزنجوش والبنفسج والنيلوفر والياسمين. ويزيلون الشعت من أصول الأظفار بغسلها بالخل والعسل والمرتق وبدهن الورد واللوز المر، ويجلون الأسنان بالسواك والأشنان والسكر. ويطيبون الجسد بالصندل والورد والمرتك المربّى بماء الورد وبالبخورات والثياب بالذّرور المطيبة. ويطيبون الفم بمضغ العود الرطب والكزبرة والفول وقشر الأترجّ، ويستعملون في الثيب قلوب الرمان الحامض والعفص معجونين بمرارة البقر ويحتملنه فيصرن كالبكر. ويصيّرون العين الزرقاء كحلاء بأن يقطّر فيها ماء قشر الرمان الحلو ويصبغون البياض الذي على مام العين بان يقطر فيها لبن آتان حار.

ومن وصاياهم لهن أن يتبرجن ويختفين للمشتري تارة وتارة ويسلبن المبتاع والنافرين بطبائعهم عن النساء وتمشّين على الثياب وينكسرن لهم ويتمنّعن عليهم فإنّ في ذلك هلاكًا للقلوب، ويلبسون الجواري البيض الألوان من الثياب الشفافة والمورّدة ويلبسون السود الفلافل الحمر والصفر"[٢٠].

ثانيًا: دور الدعارة (العامة والخاصة)

كتب الوزان أن البؤس الذي يفتق بضعفاء الشعب في تونس يؤدي بكثير من النساء إلى الاتجار بمفاتنهن بأبخس الأثمان ويدفع بالغلمان إلى التعرض للرجال، وهم أشد دناءة ووقاحة ورذالة من العاهرات"[٢١].

أظهرت المقولة وقع البؤس والفقر في نفوس سكان تونس إلى درجة دفع النساء إلى الاتجار بأجسامهن بأثمان بخسة وتركت العاهرات الأماكن المخصصة لهن والخروج علنا للشوارع. وفي هذا الإطار تعددت أماكن

تواجد البغايا مثل الأسواق والمقابر والأعراس وغيرها، إلا أن الجدير بالذكر أنّ أشهر أماكن لتبلور صورتها الدونية هي الفنادق التي كانت غالبا قبله للتجار والغرباء والنصارى[٢٢]. وإن خصصت الفنادق للإقامة والراحة للمسافرين والتجار فإن سمعتها قد شوّهت وربطت في أغلب الفترات بالمحرمات مثل الدعارة وشرب الخمر حتى أن ابن عبدون حذّر من اعتماد امرأة مشرفا على فندق التجار والغرباء لأنّ ذلك يؤدي للزنا[٢٣]. وقبل ذلك بفترة زمنيه طرح على القابسي نازلة رجل سكران كان يقول الكلام الفاحش ويسب الجلالة ويردد "كل صاحب فندق قرنان قواد ولو كان نبيا مرسلا"[٢٤]. وبينت بعض الكتابات التقاء الرجال والنساء في بعض الفنادق، ففي تونس كان فندق الحفصية وكرًا "للخناء وأنواع الفسوق"[٢٥]. وحققت المساكن المخصصة لمبيت القوافل التجارية أموالا هائلة لمالكيها نتيجة الفواحش والبغاء. "يتعرض الغلمان لقوافل التجار... فإن كان الزمان صيفًا وكانت وقت القائلة، أغلق عليهم الأبواب وأرخى الستور وأدخل عليهم غلمانا... فإن كان وقت النوم تقدمت لكل رجل جارية تفرش وتتولى خدمته. فلا يزال هذا على دأبهم ما شاءوا أن يقيموا، وإن أرادوا الانصراف جمعوا له الحمل الكبار من المال فدفعوها له، ومنهم من لا يرجع إلى بلده بدرهم من ماله بل ينفقها في داره... وربما عشق غلاما من أولئك الغلمان أو جارية من تلك الجوار، فكان ذلك أسرار لإتلافي ماله ودماره"[٢٦]. وهذا ما كان يعانونه تجار قسنطينة في تونس، فهم يتضررون أكثر مما يستفيدون بسبب التبذير على العاهرات. وهو ما أورده الوزان في قوله "... لا يؤدي تجار قسنطينة واجبات الدخول إلى تونس، بل يؤدون عند الخروج منها وقدره اثنان ونصف بالمائة، إلا أنهم يتضررون من هذا السفر أكثر مما يستفيدون، إذ تؤدي بهم متعه الفجور إلى تبذير معظم ما حصلوا عليه وإنفاقه على النساء العاهرات"[٢٧].

ولم تكن فنادق فاس أحسن حال، فهي سكنًا كريهًا ومجمع لكل الناس من الغرباء وأهل المدينة ويجول فيها الرجال المتشبهون بالنساء والمومسات وتباع فيها الخمر، حتى أنّ أهالي فاس كانوا ينبذون أرباب هذه الفنادق ولا يخالطونهم ولا يتعاملون معهم ولا يكلمونهم. وذكر ذلك الوزان في وصفه لمدينه فاس بقوله "يوجد بفاس مائتا فندق... لكن على الرغم من حسن هذه الفنادق وسعتها فإنها تمثل سكن كريها... ولا يسكن الغرباء وحدهم في هذه الفنادق، بل جميع الرجال الأرامل من أهل المدينة الذين لا منزل لهم ولا أهل، يسكن الغرفة واحد منهم أو اثنان... وأسوء ما في الأمر مساكنة رهط يقال له "الهيوي" وهم رجال يرتدون ثياب النساء ويتحلون بحليهم. يحلقون لحاهم ويقلدون النساء حتى في طريقه كلامهن. وماذا عساي أقول في أسلوب كلامهم؟ إنهم يتغنجون أيضًا. ولكل واحد من هؤلاء الأنذال صاحب يتسراه ويعاشره كما تعاشر المرأة زوجها. ولهؤلاء الناس أيضا في الفنادق زوجات أخلاقهن كأخلاق المومسات في مواخير أوروبا، ولهم كذلك ترخيص بشراء الخمر وبيعه دون أن يزعجهم موظفو الحاشية، يختلف إلى هذه الفنادق دائما أولئك الذين يعيشون أشنع عيشة يغشاها بعضهم السكر، وبعضهم لإتيان شهوتهم مع باغيات مرتزقات... ولولا ما يلزم المؤرخ من قول الحق لأغفلت بكل سرور هذا القسم من وصفي وفضلت السكوت عن اللوم الذي تستحقه هو هذه المدينة التي نشأت فيها وترعرعت. والواقع أن مملكه فاس، إذا استثنينا هذا العيب، تضم أناسًا هم اشرف خلق الله بإفريقيا كلها ولا علاقة لهم إطلاقًا مع أمثال أرباب الفنادق الذين سبق ذكرهم، فهؤلاء لا يخالطون إلا الأرذال من أسفل الأسافل، ولا يكلمهم أي فقيه أو تاجر أو صانع محتشم، ويمنعون من الدخول إلى الفنادق القريبة من الجامع، والى الأسواق والحمامات والبيوت الخاصة، ويمنعون بالأحرى من الإشراف على الفنادق المجاورة للجامع التي يسكنها تجار من درجه سامية، ويتمنى لهم الموت جميع الناس، لكن لما كان الأمراء يستخدمونهم لحاجات الجيش كما ذكرت، فإنهم يتركونهم يعيشون تلك العيشة الكريهة"[٢٨].

لم يقتصر البغاء على الفنادق، بل وجدت دور عمومية ومواخير، وكانت هذه الأماكن تحت إشراف السلطة وفي تعامل مباشر معها، فذكر الوزان عن فاس "وفيها أيضًا دور عموميه تمارس فيها البغايا مهنتهن بثمن بخس تحت حماية رئيس الشرطة أو حاكم المدينة. كما يتعاطى بعض الرجال دون أن يثير غيظ البلاط مهنة "البغاء"،

فيتخذون في بيوتهم نساء عاهرات وخمورًا يبيعونها، بحيث يستطيع كل واحد أن يتناول من ذلك ما شاء بكل طمأنينة"[٢٩].

وأعطى حكام فاس في أواخر الفترة الوسيطة لرؤساء الشرطة الحق في امتلاك الحانات وممارسة البغاء والتدييث، وهو ما أشار له الوزان في قوله: "وفي فاس أربعة رؤساء للشرطة لا أكثر... ولا يتقاضون هم أيضًا أي أجر غير حصيلة المغارم المفروضة على من يلقون عليه القبض. وتقدّر قيمتها بحسب مدة السجن ونوع العقوبة التي يعاقب بها المقبوض عليهم. لكن هؤلاء الرؤساء للشرطة يستطيعون أن يتخذوا حانات ويمارسوا مهنه (البغاء) والتدييث. وليس للعامل قاض ولا كاتب، وإنما ينطق بالأحكام بصوت عال كما يشاء"[٣٠].

ومن قبله تحدث المراكشي على العصبية المرابطية وأكد على السطوة الكبيرة للمرأة في الدولة وانتشار الدعارة بين أكابر النساء وتكوينهن شبكات من الإجرام والفساد وذلك في غياب تام للخليفة. "واستولى النساء على الأحوال، وأسندت إليهن الأمور، وصارت كل امرأة من أكابر لمتونه ومسوفة مشتملة على كل مفسد وشرير وقعه سبيل وصاحب خمر وماخور، وأمير المسلمين في ذلك كله يتزايد تغافله، ويقوى ضعفه، وقنع باسم إمرة المسلمين، وبما يرفع إليه من الخراج، وعكف على العبادة والتبتل..."[٣١].

ولا شك أن ما المح إليه الوزان من مشاهداته والتشدد الذي اتبعه ابن عبدون تجاه العاهرات "ولو أذنهن في ذلك"[٣٢] دليل على انتشار هذه الظاهرة، أو على الأقل لم تعد مخفية على العيان من أهل مدن المغرب الإسلامي أو زوّارها، وإحالة على موقف السلطة الحاكمة الذي قبل بهذا الأمر وتوظيفه واستغلاله. فكان أصحاب الفنادق في فاس الذين لديهم تراخيص بيع الخمور "ملزمون عند الاقتضاء بأن يقدموا إلى جيش الملك أو الأمراء عددًا كثيرًا من مستخدميهم لطبخ الطعام للجنود لقلة المختصين في مثل هذه الخدمة"[٣٣].

وذهبت السلطة إلى اعتبار الدعارة ضمنيًا نشاطًا اقتصاديًا وفرضت جباية على البغايا ودور البغاء، فقد "كان بقرطبة أماكن مصرح بها لقضاء المتعة الجنسية فيها، واعتقد أنّ المستعربين هم الذين كانوا يديرون هذه الأماكن، وكانت الحكومة تجبي منهم الضرائب على ممارسة تجارة الجنس"[٣٤]. "وعرفت المدينة بيوت "الحضوة"...، وتسكن العاملات فيها، ويدفعن ضرائب للدولة، وتسمى الواحدة منهن في لهجة الأندلس "خراجية" ويطلق على بيوت الدعارة نفسها "دار الخراج" ويسميها ابن العذارى "دار البنات"[٣٥] وكان الزبائن من المدينة والريفيين والتجار وعابري السبيل"[٣٦].

اتخذت الدعارة أيضًا طابعًا خاصًا في المغرب الإسلامي الوسيط، وذلك بذهاب الزبون إلى بيوت الدعارة الخاصة أو بجلب فتاة إلى منزله قصد المتعة. فوجد في الأندلس أرباضا خاصة ببيوت الدعارة عرفت آنذاك باسم القصيفة ويزورها الزبائن في أوقات محددة وخفية خوفًا من الشبهة. بل منهن من يقضين ليال في بيوت الأثرياء بما أنه بالإمكان استدعاءهن إلى المنازل[٣٧]. وأطلق على هذا النوع من المومسات بالطرازات، فهن دائمي التجوال في الأزقة والأرباض والأسواق لإغراء الرجال وجلب الزبائن، لذلك حاول رجال الحسبة منعهن الاختلاط بالنساء العفيفات حتى لا يفسدهن[٣٨].

ولو أننا نورد هذه المعلومة بتحفظ، فإن أغلب الظن، تنحدر البغايا من الطبقة العامة من النساء اللاتي لم يستطعن التصدي للهزات الاجتماعية والاقتصادية ومن زوجات الأسرى والمفقودين والجواري[٣٩]. وهن من ذوات الحسن والجمال ويجدن الرقص ومن ذوات الظرف والخفة والفكاهة والمرح ولطافة الحديث، فيجمعن بين المتعة النفسية والحسية والجسدية[٤٠].

وأورد ابن حزم أن للأغنياء في الأندلس منازل خاصة وسط البساتين يمارسون فيها لهوهم[٤١] ونقل لنا التيفاشي بعض الأمثلة عن اللقاءات بين البغايا والزبون ونذكر منها "وحيلهن أن المرأة إذا لقيها رجل في طريق واتفقا، ولم يجدًا موضعًا، تسير معه إلى أطراف المدينة وتطلب بيتا للكراء، وهو معها كأنه بعلها وكأنهما يطلبان دارا يكتريانه، فإذا دلاّ على دار خالية دخلا لها بدالّة التقلّب، فيقضيان أربهما ثم يخرجان، إما على أنهما يرجعان فيكتريان، وإما على أنهما لم تصلح لهما"[٤٢]. وأضاف "لقى زان قحبة في مدينه مراكش، فولفها وفي رجل الرجل نعل وقد أنفتق مقدمه وخرج رأس إبهامه

منه، ونساء مراكش خاصة متهافتات على النبيذ شديدات الشغف به، لا يحصلن إلا عليه ومن أجله، فقال لها الرجل: يا سيدتي، ما تشربين عندنا اليوم؟ فقالت له: حتى تسقي الكلب الذي خرج لسانه من العطش، وأشارت إلى رجله"[٤٣]. وأيضًا كان لرجل بالمغرب من المتعيّشين في عصرنا هذا، ولدان أحدهما زان متخلف، وكان أخوه يكايده، فأدخل يوم امرأة لبيته وقطن له أخوه، فجاء فوجد خفّ المرأة على باب البيت فأخذه وخرج... فلما خرجا لم تجد المرأة خفها فطلبته من الذي ادخلها، فتركها ومضى إلى أبيه وهو يبكي، وأبوه جالس في جماعه، فقال له: ابنك يؤذيني، فقال له: ما صنع بك؟ قال: كانت عندي حاجه في البيت، أخي سرق خفها، فظن أنه كنى بحاجة كناية لم يفهمها أحد، فضحك جميع الحاضرين وقام إليه أبوه فأوجعه ضربًا وسبًا"[٤٤].

ثالثًا: القوادة أو الوساطة

تطلبت مهنه البغاء القوادة أو الوساطة وأطلق عليها اسم السفارة لأنها تسفر بين الرجال والنساء أي تجمع بينهم على البغاء[٤٥]. وارتبطت مهنه الوساطة في الغالب بالنساء وتجلّت في صوره سلبيه قبيحة لالتزام المجتمع بالعادات والتقاليد النابعة من الوازع الديني. وذكر الونشريسي أنه أوتي إلى الإمام سحنون "بامرأة (من أهل القيروان) يقال لها حكمة وكانت تجمع بين الرجال والنساء فأمر بضربها وسجنها. وعنه أيضا أنه أتى بالمرأة التي يقال لها تركوا وكانت تجمع بين الرجال والنساء واستفاض خبرها فأمرها فتحوّلت من دارها وطيّن باب الدار بالطوب والطين وضربها سياطا وجلدها في القفة،... وأمر بنقلها وجعلها بين قوم صالحين"[٤٦].

وتتصف القوّادة بحسن الشكل والظرف وسماحة المحيي وخفه الظل ليستلطفها النخاسين، فكانت القوّادة حكمة في القيروان "خذلاء أي غليظة الساقين حسنة طويلة..."[٤٧]. وأورد السقطي "ومن خدعهم المشهورة، وحيلهم المذكورة، أنّ لهم نساء شاطرات ذوات حسن فائق، وجمال الرائق، يحكين اللسان الأعجمي، والزي الرومي، فإذا وقع لهم من غير بلدهم من يطلبوا جاريه حسناء قريبة العهد بالجلب من بلاد الروم يعده بقرب وجودها ويطعمه بتأني قصده فيها ويسوّفه في أمرها ويشوّقه إليها حتى يحضرها له على أنها نضو..."[٤٨].

وكتب ابن الخطيب عن مدينه برشانة: "فأصبح ربعهم ظرفا، قد ملئ ظرفًا، فللمجون به بسوق، وللفسوق ألف سوق، تشمر به الأذيال عن سوق، وهي تبيّن بعض بيان عن أعيان، وعلى وجوه نسوانها طلاقة وفي ألسنتهم ذلاقة، ولهن بالسفارة في الفقراء علاقة..."[٤٩]، وجاء في شعر يصف القوادة والقوّادة الآتي:

قوّادة تفخر بالعار أقود من ليل على سار
ولاّجة في كل دار وما يدري بها من حذقها داري
ظريفة مقبولة الملتقى خفيفة الوطء على الجار
لحافها لا ينطوي دائمًا أقلق من راية بيطار
قد ربيت من عرفت نفعها ما بين فتاك وشطار
جاهلة حيث ثوى مسجد عارفة حانة خمّار
بسّامة مكثرة برّها ذات فكاهات وأخبار
علم الرياضيات حوته وسا ستّه بتقويم وأسحار
مناعة للنعل من كيسها موسرة في حال إعسار
من لطف أحاديثها تجمع بين الماء والنار[٥٠]

وكانت المريدة الأكثر شرًا لصعوبة فهم نواياها، هي عجوز تلتحف بلحاف الصلاح والعبادة والتقوى ودائمة التسبيح وتعلّق في عنقها سبحة[٥١] حتى أنّ الأسر القرطبية حذرت بناتهن من الحديث لذوات العكاكيز والتسابيح.

وذكر فيهن ابن حزم: "وأكثر ما يستعمل المحبون في إرسالهم إلى من يحبونه، إما خاملاً لا يؤبه ولا يهتدى للتحفظ منه، لصباه أو لهيئة رثة أو يذاذة في طلعته، وإما جليلا لا تلحقه الظنن لنسك يظهره أو لسن عالية قد بلغها. وما أكثر هذا في النساء ولا سيما ذوات العكاكيز والتسابيح والثّوبين الأحمرين. وإني لأذكر بقرطبة التحذير للنساء المحدثات من هذه الصفات حيثما رأينا، أو ذوات صناعة يقرب بها من الأشخاص، فمن النساء: كالطبيبة والحجامة والسراقة والدلالة والماشطة والنائحة والمغنية والكاهنة والمعلمة والمستخدمة والصناع في المغزل والنسيج..."[٥٢].

عمومًا، رغم ما عرفته القوّادة من انتشار في المجتمع المغربي الوسيط إلا أنها ذكرت في شكل إشارات داخل النصوص الإخبارية ونعتت بأسوأ النعوت لعلاقتها بالوساطة بين الأحباب أو الوصال بين من يبتغون الممارسات الجنسية، فهي المخادعة والداهية والعاهرة، وتركت الأمثال الشعبية بعض الأقوال فيها:"المرا المدّيد ما تحتاج لقوّيدة"(٥٣)، و"إذا كانت القويد رشيق، تناك قبل العشيق"(٥٤).

ونورد هذه الرواية التي حكاها النفزاوي عن حيل ومخادعة القوّادة للنساء:حكي... أنّ رجلا يهوى امرأة ذات حسن وجمال فأرسل إليها فأبت فشكى وبكى ثم غفل عنها، ثم أرسل لها مرارا المتعددة فأبت وخسر أموالا كثيرة لكي يتصل بها فلم يرن منها شيئا فبقي على ذلك مده من الزمن ثم رفع أمره إلى عجوز واشتكى لها حاله، فقالت له: أنا أبلغك مرادك منها، ثم إنها مشيت إليها لكي تراودها فلما وصلت إلى المكان، قالوا لها الجيران: إنك لا تطيقين الدخول لدارها لأنّ هناك كلبة لا تترك أحدا يدخل ولا يخرج... ففرحت تلك العجوز وقالت: الحاجة تقضى إن شاء الله، ثم ذهبت إلى منزلها وصنعت قصعة رقاق ولحما ثم أتت إلى تلك الدار فلما رأتها تلك الكلبة قامت لها وقصدتها فأرتها القصعة بما فيها فلما رأت اللحم والرقاق فرحت بذلك ورحّبت بذيلها وخرطومها، فقدّمت لها القصعة وقالت لها: كلي يا أختي فإني توحشتك ولا عرفت أين أتى بك الدهر، أنا لي مدة وأنا أفتش عنك فكلي، ثم قالت لها: من أين تعرفين هذه الكلبة؟ فسكتت عنها وهي تبكي وتمسح على ظهر الكلبة، ثم قالت: كانت صاحبتي وحبيبتي مدة من الزمن فأتت إليها امرأة واستأذنتها لعرس فلبست هذه الكلبة ما زانها ونزعت ما شانها وكانت ذات حسن وجمال، ثم خرجت أنا وهي فتعرض لها رجل وراودها عن نفسها فأبت، فقال لها: إن لم تأتيني أدع الله أن يمسخك كلبة، فقالت له أدع بما شئت، فدعى عليها، ثم جعلت تبكي وتنوح، وقيل أنها عملت لها الفلفل في ذلك الطعام فأعجب الكلبة واشتغلت بأكله، فلما أحرقها في فمها دمعت عينا الكلبة، فلما رأت العجوز الدموع تسيل من عينيها جعلت تبكي وتنوح ثم قالت لها المرأة: وأنا يا أمي أخاف أن يصير لي مثل هذه الكلبة، فقالت لها العجوز: أعلميني ما ذاك، قالت عشقني رجل مدة من الزمن ولا أعطيه سمعا ولا طاعة حتى نشف ريقه وخسر أموالا كثيرة وأنا أقول له لا أفعل هذا، وإني خائفة يا أمي أن يدعو عليّ قالت لها العجوز: أرفقي بروحك يا ابنتي لئلا ترجعي مثل هذه الكلبة، فقالت: أين ألقاه وأين أمشي إليه؟ فقالت لها العجوز: يا بنتي أنا أربح ثوابك وأمشي له، فقال لها: أسرعي يا أماه قبل أن يدعو عليّ، فقالت لها العجوز: اليوم نلتقي به والأجل بيننا في الغد..."(٥٥).

رابعًا: التيفاشي ونزهة الألباب

شهاب الدين أبو عباس أحمد بن يوسف التيفاشي القيسي، ولد بتيفاش من قرى قفصة بإفريقية، تعلم بمصر ووليّ القضاء في بلده، ثم عاد إلى القاهرة وتوفي بها. (٥٦) من مؤلفاته أزهار الأفكار في جواهر الأحجار، فضل الخطاب في مدارك الحواس الخمس لأولي الألباب، متعة الأسماع في علم السماع في الموسيقى... ويعتبر مؤلفه نزهة الألباب فيما لا يوجد في كتاب من الكتب النادرة والفريدة في طريقة تأليفه وخصائصه وموضوعاته والجرأة في طرحها دون خوف أو خجل في كشف المستور من الظواهر التي تبدو مخجلة ومعيبة بحق الرجال والنساء في المجتمعات العربية والإسلامية. وهو من الكتب النادرة التي وضع فيه مسحًا شاملاً للظواهر الجنسية المتخفية منها والظاهرة في المجتمع الإسلامي حتى نهاية منتصف القرن السابع هجري، كما يمكن تصنيفه من أول المؤلفات في الأدب الايروتيكي المحرم والشاذ الذي منع من التداول في كثير من المكتبات العربية. واعتقد الشيخ التيفاشي أنّ كتابه قدّم مادة معرفية وأدبية وتاريخية فيها كم هائل من المتعة والنوادر اللطيفة والفن والموسيقى، وفيها كم هائل من النصوص والحكايات الفكاهية والأخبار المسلية والعجيبة والتي في ذكرها مقاصد شريفه الهدف منها فهم المجتمع وإصلاحه. وتناول التيفاشي في كتابه فئات البغايا والقوادين والزناة واللوطيين والسحاقيات وأفعالهم وأساليب عملهم، وحوّل كتابه من الطابع الجدّي الأكاديمي إلى الطابع الممتع، جمع فيه النوادر

والأخبار والأشعار بمزاوجة بين بشاعة اللفظ وحسن المقصد لنقل الواقع الإسلامي بالمغرب والمشرق.

واعتبر في كتابه المرأة أكثر فجورًا وأشد تهالكًا على الجنس والزنا والخيانة الزوجية، وأورد لها حيلاً عجيبة للإيقاع بالرجل في حبائلها وأطلق عليها تسميات متعددة. وذكر عديد العلامات التي يستدل بها الرجل على المرأة الراغبة في الزنا، مثل إطالة النظر في الرجل الأجنبي عند التحدث معه أو التظاهر بالتثاؤب أو العبث بطرف ثوبها وإزارها كأنها تقلّبه أو تنكث بإصبعها في الأرض أو تحرك إبهام رجلها بعد أن ترفعه وتضعه في الأرض أو تنظف جسد ولدها وثيابه وتمشطه وتكحله وتعرضه على العشيق أو تكثر في الحديث عليه مع صاحباتها وجاراتها ويسوء حالها ويتعاظم ضجرها عند غياب المحبوب، وإن كان الرجل المرغوب متزوجًا تصادق زوجته وتكثر الزيارات إليها والولع بأشيائه الخاصة والبحث فيها وإن وجدت فراشه استلقت عليه ولعبت فيه.

وقسم التيفاشي مؤلفه إلى ١٢ بابًا، سنسرد منها باختصار شديد ما أورده بالبابين الرابع والثاني حول البغايا والقوادة. فصنف البغايا إلى ٧ أنواع وهن: الغيرانة والسكرانة والحيرانة والشاطرة، والمسافرة، والمغنية، والمظلومة. "فالغيرانة"، اشتق اسمها من الغيرة وتعمد إلى إغواء الرجل باستعمال أسلوب الاستمالة والتشويق وتأجيج الشهوة في قلبه، بسرد حكاية المرأة الضحية التي خانها زوجها أمام أعينها دون اهتمام لمشاعرها وغيرتها الشديدة، فتقرر رد الصفعة له ثم تتراجع عن ذلك وترحل، فيبعث تصرفها شغفًا كبيرًا في نفس الرجل الذي يتبعها ويحاول استعادتها ويلح في ذلك ولا تعود معه إلا بعد حصولها على ما تريد منه من مال. واشتق اسم "السكرانة" من السكر ولا يختلف أسلوبها عن الغيرانة في الإغواء، فهي تختار الزبون المطلوب وترمي نفسها على صدره وتخاطبه بكنية عشيق مزعوم لها وتتهمه بالخيانة وتحاول تمزيق ثيابه وتؤجج شهوته، ثم تتأسف وترحل بذريعة أنّ الخمر أفقدها صوابها، فيلاحقها الرجل ويكون فريسة سهلة يدفع كل ما تطلبه لاستعادتها. وأخذ اسم "الحيرانة" من الحيرة، وهي تلك التائهة التي تختار منازل الغرباء والعزاب وتدخلها دون إذن وتدعي أنها تبحث عن أم فلان، فتغري الرجل الذي يحاول استغلال خلاء المنزل والخلوة، ولكنها تأبى وتروم الخروج فيجذبها، فتحصل منه أملها وعلى شرطها ومرادها فتدخل. واشتق اسم "الشاطرة" من الشطارة لاعتمادها أسلوب الدهاء والمغالطة والمخادعة واستعطاف الضحية بقصة تلهب الألباب مفادها أنّ عشيقها الذي كانت معه قبل قليل أراد أن يهديها لصديقه دون إحساس بالنخوة والرجولة، فهربت منه حافية شبه عارية، ثم ترحل، فيلاحقها الرجل فتأبى وتتمنّع ويرغّبها حتى يبذل لها فوق ما تستحقه، فتطاوعه. واقتبس اسم "المسافرة" من السفر والتنقل بين القرية والمدينة ولها نفس أسلوب سابقيها من تشويق وإغواء وتأجيج شهوة الضحية ثم تصاحبه إلى منزله وتبقى معه عدة أيام وتحصل منه على ما تريد. و"المغنية" تعتمد الحيلة والمخاتلة وجر الزبون إلى منزلها لتغتصب ماله دون الوصول إليها، ويساعدها في الاحتيال شريك لها يدّعي أنه زوجها يظهر بعد خلع الضحية ثيابه. واشتق اسم "المظلومة" من الظلم، حيث ترصد بيت العزاب أو رجل في دهليز بيته وتطلب منه الغوث بعد أن تعلمه بأنها كانت مع نساء غيرها في دار مع رجال يشربون وأنّ الشرطة داهمتهم، واستطاعت الفرار، فيغيثها وتبدأ تقص عليه التفاصيل بدقة مما يؤجج فؤاده، فيحاول مراودتها وترفض إلى أن يخضع لمطالبها وشروطها[٥٧].

قدم التيفاشي ٧ أصناف من العاهرات، وإن اختلفت التسميات التي ارتبطت بخططهن والحالة التي يظهرن عليها، فإنّ الأسلوب متشابها حتى ظننا أنهن صنف واحد. فإن استثنينا المغنيّة التي اعتمدت حيلة مختلفة ارتكزت على استدراج الضحية إلى منزلها وسلبه ماله وأشياءه بمعيّة معاونها الذي يدّعي أنه زوجها، فإنّ البقية لهن نفس التكتيك وهو الظهور للضحية والتقرّب منه واستدراجه في الكلام ثم الإغواء والتشويق، فتلهب فؤاده ثم تتمنّع وتنسحب، فيتحول إلى مطارد لها ويحصل المراد حين يقبل بكل شروطها وطلباتها.

وصنف التيفاشي القوادون إلى ٢٢ صنف، ٢٠ منهم على الإناث و٢ على الذكور. وكان نصيب الإناث بالتساوي ١٠ من الرجال و١٠ من النساء ونذكر من

الوسطاء الرجال، "الحوش" ويسمى عند العجم "الزملكاش" ومكلّف بحمل الآلات الموسيقية وأخذ الجارية إلى بيت الحريف وإعادتها لمنزلها، ولا يحصل على مال مقابل ذلك سوى ما وهب له. و"حوش الحوش"، مهمته التثبت من محاصيل الجارية من محصلّها، إن كانت ناقصة أو زائفة، فإن كانت كذلك يخبر العاهرة لتتصرف بسرعة. و"المعرّس"، وهما نوعان "الأقرع" و"الملآن"، ويمتلك الصنفان بيوتا للجمع بين النساء والرجال، والفرق بينهما أنّ الأقرع منزله خال من سوى فرش نظيف ولا يتدخل في التعارف بين الرجل والمرأة. أما الملآن فله منزل عامر مجهز ويأتي بالمرأة للزبون. و"السمسار"، هما "المدلس" و"القطاة"، سمي الأول بالمدلس لأنه يروّج لامرأة ويأتي بأخرى للزبون، أما الثاني فإنّ اسمه متأتّ من صدقه. و"الدوّار"، ويتلخّص دوره في الصّيد باعتماد الجولان، فهو يختار مواضع الشرب ويأتي بامرأة مليحة معه ويدّعي التساؤل عن شخص غير معلوم لديهم، ثم ينقل الحديث من البحث عن الشخص إلى التفاوض عن المرأة التي تصحبه ولما يحصل على ما يريد يتركها ويرحل. و"الدكدف"، وهو رجل يتحلّى بمظهر أنيق يقصد تجمعات الخلائق من العامة ويستغل المشاجرات بينهم التي يغلب عليها السب والشتم بالأم والزوجة. ثم يذهب إلى الفريسة ويقنعه بأنّ زوجة غريمه عنده في المنزل وبإمكانه أن يصله بها وينتقم منه، ويوهمه بصدق كلامه بإعطائه إشارة عبارة عن خاتم بإصبع المرأة ويشير إليه بضرورة أخذه منها والتلويح به لزوجها كل ما اعترضه في الطريق وبهذا يكسر عينه ويضرب عنقه. و"المرحل" وهو قواد ملازم للبغيّ المغنية ويستعمل الحيلة والدهاء للإيقاع بالضحية دون أن ينوّله غايته والتمكن جنسيا من المغنية. وأخيرًا "المسكّن"، واشتق اسمه من السكن، فهو من الأثرياء، قادر على فتح فندق خاص مجهّز بكل ما يلزمه من وسائل الراحة والطعام ويملأه بالجواري والغلمان. ويتعرّض القوافل التجارية ويوهمهم بأنّه دلاّل على أمتعتهم التجارية ويحملهم إلى منزله ويوفر لهم كل سبل الراحة والمتعة، فتتحول الحمولة التجارية أجرا لما قدمه لهم وقد يتلف البعض منهم جميع ماله.

أما القوادات على النساء فنذكر منهن، "المريدة"، وهي عجوز تستغل التقوى والورع للإيقاع بالفتيات في شباك الدعارة. و"الحاجيّة"، واشتق اسمها من الحج، فهي تستغل انتقالها لمكان غير مكانها وصفة الحج لدخول المنازل وفساد المحصنات. و"المتصرفة"، وهي تتصرّف مكان النساء بقضاء حوائجهن في المنزل وخارجه وتجمع بذلك بين الرجال والنساء. و"الدلالة" تدخل منازل النساء بقصد البيع والشراء وبهذا تحصل على ما تريد. و"القابلة" و"الماشطة" و"الحمامية"، و"الحافظة" و"الطرقية" و"الحجامة"، يدخلن على النساء بداعي الجانب الاستيتيقي والجمالي فيجمعن بين الرجال والنساء ويحصل الإغواء.(٥٨)

خَاتِمَةٌ

مثّل البحث محاولة لدراسة تاريخ المغرب الإسلامي الوسيط من الأسفل بإلقاء نظرة على ظاهرة غيبتها الذاكرة واعتبرتها من المحرمات وفئة رفضت اجتماعيًا وهمّشت تاريخيًا. فلم يغب البغاء عن مجتمعات المغرب الإسلامي الوسيط لهذا تطرقنا في البداية إلى البغايا وأنواعهن وتصرفاتهن وكيفية إغوائهن للرجال والطريقة التي يجهّز بها النخاسون الإيماء "لسوق الدعارة" وأدوات الزينة التي يصبغون بها الأمة لتغطيه العيوب والتشوهات والأمراض، بل وتغيير لون بشرتها وعيونها بناء على طلب الزبون. ثم المحنا إلى دور الدعارة المنتشرة في المغرب الوسيط والتي توزعت بين الفنادق والدور الخاصة والاستراحات والمواخير العمومية. وكان لزومًا التطرق إلى الوسطاء في تلك الفترة الذين كان لهم دورًا كبيرًا في تنظيم وتنشيط هذه الظاهرة. وكان التيفاشي نموذجًا رائعًا لما تركه في كتابه النادر نزهة الألباب من دراسة شاملة ودقيقة للظواهر الجنسية في المجتمع الإسلامي بشرقه وغربه. وأبرز فيه فئات عديدة بأسلوب فكاهي. واقتبسنا من هذا الكتاب الفريد الباب الرابع الذي خصصه لطبقة العاهرات المبتذلات ونوادر أخبارهن وأساليبهن للاتصال بالزبائن والحيل للنيل منهم وأخذ غايتهن، والباب الثاني الذي خصصه لطبقه القوادين والقوادات الذين صنفهم إلى أصناف عديدة وصلت إلى ٢٢ نوع، وأبرز تصرفاتهم وأساليبهم في إغواء الرجال وتناول ما جاء فيهم من نوادر وحكايات وأوردها في شكل قصص وأشعار.

الملاحق

الصورة رقم (١)

اتفاق سري

المصدر: https://www.pinterest.com/pin/410812797256220771

صورة رقم (٢)

لقاء بين البائع والزبونة داخل الدكان

المصدر: https://www.amazon.fr/Singing-Palette

الصورة رقم (٣) بيع الجواري

المصدر: https://fr.m.wikipedia.org/wiki

الصورة رقم (٤) دار بغاء

المصدر: https://www.pinterest.com/pin/202380576996207259

الصورة رقم (٥) الأعراس والرقص بالبادية

المصدر: https://www.alamyimages.fr

صورة رقم (٦) المزوار أو الوسيط

Source: https://www.repro-tableaux.com/a/gimenez-y-martin-juan/the-harem-2.html

الإحالات المرجعية:

(١) ريمي كونستابل (أوليفيا)، **إسكان الغريب في العالم المتوسطي، السكن والتجارة في أواخر العصر القديم**، تعريب محمد الطاهر المنصوري، مراجعة محمد ياسين الصيد، المدار الإسلامي، لبنان، ٢٠١٣، ص ١٦٠- ١٦١.

(٢) بالباس (ليوبولدو طريس)، **التاريخ الحضري للغرب الإسلامي، الحواضر الأندلسية**، تعريب محمد يعلى، دار أبي رقراق للطباعة والنشر، المغرب، ٢٠٠٧، ج١، ص ٣٠٥.

(٣) ابن عبدون، **ثلاث رسائل أندلسية في آداب الحسبة والمحتسبة**، تحقيق الأستاذ ليفي بروفنسال، دار الطباعة، القاهر، ١٩٥٥، ص ٥٠.

(٤) **المصدر نفسه**، ص ٤٧.

(٥) المقري، **نفح الطيب في غصن الأندلس الرطيب**، ج٣، تحقيق إحسان عباس، دار صادر، بيروت، ١٩٦٨، ص ٢٣٣.

(٦) ابن قزمان، **ديوان ابن قزمان**، دراسة وتحقيق فريديريكو كوريني، تقديم د. محمود علي مكي، المعهد الإسباني العربي للثقافة، مدريد، ١٩٨٠. ص ١٦٣.

(٧) بوتشيش (إبراهيم القادري)، **مباحث في التاريخ الاجتماعي للمغرب والأندلس خلال عصر المرابطين**، دار الطليعة، بيروت، ١٩٩٧، ص ١٩٣.

(٨) ابن عبدون، ص ٥١.

(٩) المقري، ج١، ص ١٥٥.

(١٠) ابن الكردبوس التوزري، **الاكتفاء في أخبار الخلفاء**، ج٢، دراسة وتحقيق عبد القادر بودربالة، دار الكتب العلمية، بيروت، ٢٠٠٩، ص ٣٦٩.

(١١) ابن سعيد الأندلسي، **المغرب في حلي المغرب**، ج١، وضع حواشيه خليل منصور، دار الكتب العلمية، بيروت، ص ٢١٤.

(١٢) دندش (عصمت عبد المجيد)، **الأندلس في نهاية المرابطين ومستهل الموحدين عصر الطوائف الثاني**، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ١٩٨٨، ص ٣٣٥.

(١٣) المقري، ج١، ص ١٧٨.

(١٤) ابن الآبار القضاعي البلنسي، **المقتضب في تحفة القادم**، تحقيق إبراهيم الأبياري، دار الكتاب المصري، القاهرة، دار الكتب اللبناني، بيروت، ١٩٨٧، ص ١٤٤.

(١٥) البيذق، **أخبار المهدي بن تومرت وبداية دولة الموحدين**، دار المنصور للطباعة والوراقة، الرباط، ١٩٧١، ص ٢٢.

(١٦) **المصدر نفسه**، ص ٢٠.

(١٧) ابن عبدون، ص ٥٣.

(١٨) مراكشي، **كتاب الاستبصار في عجائب الأمصار**، نشر وتعليق د. سعد زغلول عبد الحميد، دار النشر المغربية، الدار البيضاء، ١٩٨٥، ص ١٤٥.

(١٩) السقطي المالكي، **آداب الحسبة**، تحقيقي ليفي بروفنسال-كولان، مطبعة إرنست لورو، باريس، ١٩٣١، ص ٤٩.

(٢٠) **المصدر نفسه**، ص ٥٠- ٥١- ٥٢- ٥٣.

(٢١) الوزان، **وصف إفريقيا**، ج٢، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ١٩٨٣، ص ٧٧- ٧٨.

(٢٢) جبار (ناصر)، "الفنادق. فنادق التجار المسيحيين في الدولة الحفصية"، *BIBLID*، عدد١٦، ٢٠١٠، ص ٧٧- ٨٩.

(٢٣) ابن عبدون، ص ٤٩- ٥٠.

(٢٤) الونشريسي، **المعيار**، ج٢، خرجه جماعة من الفقهاء بإشراف الدكتور محمد حجي، نشر وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية للمملكة المغربية، ١٩٨١، ص ٥١٧- ٥١٨.

(٢٥) خليلي (بختة)، "الآفات الاجتماعية بالمغرب الأوسط خلال العصر الوسيط ما بين القرن ٧-٩ ه/ ١٣- ١٥ م من خلال النوازل الفقهية، **مجلة الرواق للدراسات الاجتماعية والإنسانية**، مجلد ٧، عدد ١، ٢٠٢١، ص ٢٣٦.

(٢٦) **المرجع** نفسه.

(٢٧) الوزان، ج٢، ص ٦٠.

(٢٨) **المصدر نفسه**، ج١، ص ٢٣٢- ٢٣٣.

(٢٩) **المصدر نفسه**، ص ٢٤٧.

(٣٠) **المصدر نفسه**، ص ٢٥٠.

(٣١) المراكشي، **المعجب في تلخيص أخبار المغرب**، ضبطه وصححه وعلق حواشيه وأنشأ مقدمته محمد سعيد العريان- محمد العربي العلمي، مطبعة الاستقامة، القاهرة، ١٩٤٩، ص ١٧٧. اندرجت رواية المراكشي ضمن الروايات التي قدمتها الاستوغرافيا الموحدية عن نظرة نساء المرابطين للمرأة العاهرة بالتستر عنهن في أغلب الأحيان، ولم تخرج عن الحملات الدعائية التي ركزت على لغة التجريم والتشنيع للإطاحة بالخصوم.

(٣٢) ابن عبدون، ص ٥٠.

(٣٣) الوزان، ج١، ص ٢٣٢.

(٣٤) خلاف (محمد عبد الوهاب)، **قرطبة الإسلامية في القرن الحادي عشر ميلادي- الخامس هجري، الحياة الاقتصادية والاجتماعية**، الدار التونسية للنشر، ١٩٨٤، ٣١٩.

(٣٥) أحمد مكي (الطاهر)، **دراسات عن ابن حزم وكتابه طوق الحمامة**، مكتبة وهبة، القاهرة، ١٩٧٧، ص ٤٩.

(٣٦) **المرجع نفسه**.

(٣٧) السقطي، ص ٤٩.

(٣٨) **المصدر نفسه**. / ابن عبدون، ص ٥٠.

(٣٩) تيتاو (حميد)، **الحرب والمجتمع بالمغرب خلال العهد المريني، ٦٠٩- ٨٦٩ ه/ ١٢١٢- ١٤٦٥ إسهام في دراسة انعكاسات الحرب على البنيات الاقتصادية والاجتماعية والذهنية**، مؤسسة الملك عبد العزيز للدراسات الإسلامية والعلوم الإنسانية، الدار البيضاء، ٢٠٠٩، ص ٣٩٥.

(٤٠) المقري، ج٣، ص ٢١٧- ج٤، ص ١٨٤.

(٤١) ابن حزم (علي ابن أحمد)، **طوق الحمامة في الألفة والألاف**، تحقيق حسن كامل الصيرفي، مطبعة حجازي، مصر، ١٩٥٠، ص ١٠٩.

(٤٢) التيفاشي، **نزهة الألباب فيما لا يوجد في كتاب**، تحقيق جمال جمعة، رياض الريس للكتاب والنشر، لندن- قبرص، ١٩٩٢، ص١٠٩- ١١٠.

(٤٣) **المصدر نفسه**، ص ١١٥.

(٤٤) **المصدر نفسه**، ص ١٣٦- ١٣٧.

(٤٥) البستاني (بطرس)، **محيط المحيط**، مكتبة لبنان، بيروت، ١٩٧٨، ص ٧٦٣.

(٤٦) الونشريسي، ج٢، ص ٤٠٩.

(٤٧) **المصدر نفسه**.

(٤٨) السقطي، ص ٥٤.

(٤٩) ابن الخطيب، **معيار الاختيار في ذكر المعاهد والديار**، تحقيق ودراسة محمد كمال شبانة، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، ٢٠٠٢، ص ١٠٦.

(٥٠) المقري، **نفح**، ج٤، ص ١٨٤.

(٥١) التيفاشي، ص ٧٦.

(٥٢) ابن حزم، **رسائل**، ج١، تحقيق إحسان عباس، المؤسسة العربية للدراسات، بيروت، ١٩٨٧، ص ١٤٠- ١٤١.

(٥٣) الزجالي القرطبي، **أمثال الأعوام في الأندلس**، ج٢، تحقيق وشرح ومقارنة د. محمد بن شريفة، منشورات وزارة الدولة المكلفة بالشؤون الثقافية والتعليم الأصلي، مطبعة محمد الخامس الثقافية الجامعية، فاس، المغرب الأقصى، ١٩٧١، ص٤٧.

(٥٤) **المصدر نفسه**، ص ١٦.

(٥٥) النفزاوي، (محمد بن محمد)، **الروض العاطر في نزهة الخاطر**، إعداد وتحقيق هاني الخيّر، دون سنة أو دار نشر، ص ٢٧- ٢٨.

(٥٦) الزركلي (خير الدين)، **الأعلام**، ج١، دار العلم للملايين، بيروت، ٢٠٠٢، ص ٢٧٣.

(٥٧) التيفاشي، من ص ١٠١ إلى ص ١٠٧.

(٥٨) **المصدر نفسه**، من ص ٦٥ إلى ص ٧٦.